علم الدلالة عند العرب

د/عليان بن محمد الحازمي
الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية
جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان إسهام علماء العربية في وضع أصول أسس لعلم الدلالة. ويوضح مدى اهتمامهم بالمعنى، هذا الاهتمام جعلهم ينظرون إلى اللفظ ((الكلمة)) على أنه النواة والركيزة الأساسية للوحدة الدلالية، التي ينشأ عنها وحدات الكلام ، سواء كانت جملة أو عبارة أو تعابير اصطلاحية، مثل ((ضرب كفاً بكف)) أي ندم وتحسر .

في الوقت نفسه تشير الدراسة إلى أن لعلم اللسانيات فضلاً كبيراً في إرساء مناهج البحث في علم الدلالة ووضع أصوله، حيث أصبح علماً قائماً بذاته، بعد أن كان ظلاً يسير في كنف العلوم الأخرى . إضافة إلى ذلك بينت الدراسة أن كثيراً من معطيات الدرس الدلالي الحديث، توصل لها علماء العربية أثناء دراستهم للغة، مما جعلنا نقول أن علم الدلالة علم قديم تناوله اللغويون من قبل، وحديث باعتبار أن أصوله وأسسه ومنهج البحث فيه قد حددت في مطلع القرن العشرين.

  

تمهيد :

لعلماء العربية جهود نيرة وذكية في الدرس اللغوي على اختلاف ميادينه، فلقد كانوا يصدرون في دراستهم اللغة عن رؤية شاملة انبثقت من تصورهم للغة على أنها وسيلة للتفاهم ووعاء للفكر [(١)] .

ولا نريد هنا أن نقيم إسهاماتهم فلقد تنوعت ما بين النحو والصرف واللغة وتصنيف المعاجم والبلاغة .. ولكن حسبنا أن نشير إلى ما يسمى الآن في الدراسات اللسانية بـــ " علم الدلالة أو علم المعنى Semantics .

هذا العلم ظن كثير من الباحثين أنه علم لم يكن للعرب معرفة به، فهو علم نمت أصوله وترعرعت في ظل الدراسات اللسانية الحديثة . ولست أشك في أن لعلم اللسانيات اليد الطولى في الكشف عن أسس هذا العلم وبيان أصوله وتعهده بالرعاية والعناية حتى غدا علماً قائماً بذاته بعد أن كان ظلاً يسير في كنف الدراسات اللغوية الأخرى . ولكن ما دور علماء العربية في هذا المجال وهم الذين " بحكم مميزات حضارتهم وبحكم اندراج نصهم الديني في صلب هذه المميزات قد دعوا إلى تفكر اللغة في نظامها وقدسيتها ومراتب إعجازها فأفضى بهم النظر لا إلى درس شمولي كوني للغة فحسب، بل قادهم النظر أيضاً إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتد إليه البشرية إلا مؤخراً بفضل ازدهار علوم اللسان منذ مطلع القرن العشرين"[(٢)]. إن هذا ليس زعماً مضللاً فكثير من الباحثين المنصفين[(٣)]. أشادوا بما وصل إليه الدرس اللغوي عند العرب . ونهدف هذه الدراسة إلى بيان تناول علماء العربية للمعنى، وكيفية اهتمامهم به في مختلف صوره، موضحة هذه الجهود التي لا تقل أهمية عما نجده عند علماء الدلالة في صورته المعاصرة .

فلقد كان الاهتمام بالمعني ومسائله مبثوثاً في شتى ميـــادين المعرفة التي خلفها الأسلاف، الأمر الذي يصعب الإلمام، والإحـــاطة به، مما جعلنا نكتفي بالرجوع إلى مصادر متعــــددة في أصـــولها العربية قديما وحديثا . إضافة إلى الاستـــعانة بعض المصادر الأجنبية في اللســـانيات، وعلم الدلالـــة . هذه المصـــادر كانت نعم المعين في استـــجلاء الحقيقة، وبيان الفكرة . ولا ندعي بهذا أننا أتينا بالقول الفصل، فالأمر لا زال فيه متسع .

علماء العربية وعلم الدلالة :

امتاز الدرس اللغوي الحديث بالابتعاد عن الحدس والتخمين ، والتوجه نحو الموضوعية العلمية البحتة التي لا تتأثر بالآراء الفردية ولا التصورات الجاهزة . وقد أتخذ من الملاحظة والاستقراء والاستنباط قاعدة يسير عليها . وهذا ما أكسبه الاحترام من قبل الدارسين .

والبحث اللغوي عند العرب منذ بداياته تركز على تحديد المعنى وما يحتويه القرآن الكريم من معانٍ ومقاصد . فلقد كان هم الدراسات العربية بمختلف فروعها ومسمياتها نحو وصرفاً وبلاغة ولغة ومعاجم ، " معرفة المعنى " وكان النقـــاش والتوجيهات للمسائل التي دارت بين العلماء تصب في خانة المعنى وقرروا أن " كل ما صلح به المعنى فهو جيد وكل ما فسد به المعنى فمردود "(٤) وهذا أقوى دليل على المكانة التي يحتلها علم المعنى . لذا كان علم الدلالة – كما يبدو لنا – جزءاً ملازماً لعلوم اللغة العربية لم ينفصل عنها ، إلا إنه اتخذ مساراً مستقلاً ومتكاملاً قائماً بذاته عند علماء الأصول آمل أن أتناوله في بحث منفصل ، وإن كان السيد أحمد عبد الغفار قد ألم بكثير من تصوراتهم لعلم الدلالة .(٥)

إن علم الدلالة – في رأينا – علم قديم وإن بدا أنه حديث . فما من أمة من الأمم إلا وبحثت في ألفاظ لغتها(٦) ، محاولة تحديد المعنى الذي يحمله اللفظ عندما يكون مفرداً، وبيان ما يؤول إليه المعنى عندما يوضع في تركيب . هو علم قديم باعتبار أن البحث في المعنى من حيث الوضوح والغـــموض والصحة وعدمها والاحتـــمال والفساد (٧) وما تتعرض له دلالة الألفاظ من تحول في المعنى إلى معنى آخر وأسباب هذا التحول ومظاهره مشاهد وملاحظ في أقدم ما وصل إلينا من تراث الأمم .

ثم هو علم مستحدث بفضل أن " علم اللسانيات الحديث " طور نظرياته ، ووضع أصوله ، ووضح معالمه ، وبين صلته بالعلوم الأخرى . فغدا علماً قائماً بذاته له مناهجه ونظرياته ، بعد أن كان ضمن العلوم الأخرى كالفلسفة والمنطق وعلم النفس (٨) .

والعرب مثلهم في هذا مثل الأمم الأخرى ، جاءت مباحث الدلالة عندهم موزعة في مختلف علومها وتراثها ، حيث كان المعنى هو الوجهة والأساس الذي إليه يقصدون وبه كانوا معنيين . لذا لا نعدم أن نرى أسساً وأصولاً تشبه وتضارع ما توصل إليه علم الدلالة بمفهومه الحديث ، تنثر هنا وهنالك في التراث العربي . ولقد كان عبد السلام المسدى محقاً حين قرر أن للعرب نظرية لغوية " إن التفكير ا لعربي قد أفرز نظرية شمولية في الظاهرة اللغوية "(٩) على الرغم من إنكار بعض الدارسين لذلك ، عندما نعتوا الحضارة العربية بقولهم " لم تفرز في مجال اللغويات سوى علم تقني منطلقه وغايته نظام اللغة العربية في حد ذاتها لا غير "(١٠) . وهذا مخالف لما نجده من أصول وغايات تشبه ما يبحث عنه المحدثون .

الوحدة الدلالية :

أصبح لعلم الدلالة مصطلحات ترد عند الدارسين المحدثين منها ما يسمى " بالوحدة الدلالية وهي ترجمة للمصطلح Semantic unit ولا نريد أن نخوض في تفاصيل وتفسيرات وتقسيمات المحدثين لها . وحسبنا أن نشير إلى كتاب أحمد مختار عمر(١١) هنا. ولكن الذي يعنينا هو أن الوحدة الدلالية عند العرب هي الكلمة ، سواء كانت اسماً أو فعلاً أو حرفاً ، فهي التي تمثل المكونات الأساسية للكلام منطوقاً ومكتوباً. إذ أنه بدون ذلك ينعدم الكلام . ويظهر هذا جلياً عند تحدث سيبويه في باب علم ما الكلم من العربية . إذ بين أن " الكلم اسم وفعل وحرف جاء (١٢) لمعنى . من هذا المنطلق أصبح اللفظ موضع اهتمام العلماء فقامت الدارسات ببيان وتوضيح هذه الوحدة من حيث:

١– معرفة نطقها نطقاً صحيحاً كما جاء عن العرب .

٢– بيان صيغها .

٣– بيان معناها .

٤– معرفة وضعها الوضع الذي يقتضيه علم النحو .

٥– بيان الأسباب التي تؤدي إلى تعدد معناها .

هذا الاهتمام يؤكد أن الكلمة في نظر علماء العرب تمثل أهم الوحدات الدلالية ، لأنها أساس الكلام . فهي الوحدة الدلالية الصغرى التي تنشأ منها الوحدات الدلالية الأخرى . وهذا ما يراه علماء الدلالة المحدثون . فالكلمة لها دلالة ولكن لا يتحـــدد معناها حتى توضع في تركيب . هذا التركيب نقسمه كـــالآتي:

أ– تركيب إضافي وهو إضافة كلمة إلى كلمة أخرى " اسم إلى اسم " ينشأ عنه معنى جديد كقولنا " أبو الحرب " مهيجها . " كبير القوم " سيدهم . " أم الخبائث " الخمر ، سوق المال .

ب– التركيب عن طريق الوصف وهو أن تأتي باسم عام ثم تحدده عن طريق الوصف مثل الأرض الزراعية ، البنية التحتية ، الإرادة الشعبية ، المجال العسكري.

جـــ– تركيب العبارة وغالباً ما تكون قولاً يدل على حكمة أو مثل أو تجربة

كـــ " رجع بخفي حنين " لم يحقق شيئاً ، " الصيف ضيعت اللبن " (١٣) فات الأوان، " ادهن السير يسير " اعمل شيئاً مقابل ما تريد أن تحصل عليه.

د– تركيب الجملة : وهي التي يمثل الإسناد فيها عنصراً أساسياً وهو " تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض " (١٤) فإذا قلت : "محمد كريم " فقد أسندت

الكرم لمحمد وكذلك قولك " خرج زيد " أسندت الخروج لزيد وقد وضح عبد القاهر الجرجاني ذلك بقوله : " إنه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لابد من مسند ومسند إليه "[١٥] .

وتركيب الجملة أهم وحدات المعنى ؛ وقد شغلت ولا تزال تشغل الباحثين على مختلف اتجاهاتهم لأنها تخفى أحياناً من المعاني التي قد لا تكون ظاهرة لذا كانت موضع اهتمام علم الدلالة المعاصر ففي قولــه تعالى : { فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا }[١٦] تعني تحسر وندم وقولنا " بعته يداً بيد " أي مقايضة ، وكذلك قولك يقدم رجلاً ويؤخر أخرى أي يتردد . وقد خص العلماء المحدثون الجملة بدراستهم منها على سبيل المثال " الدلالة والنحو " عبد اللطيف حماسة .

صعوبة المعنى :

يتحدث علماء الدالة عن صعوبة تحديد المعنى ، لأن المعنى الذي تدونه المعاجم ليس هو كل شيء ، في إدراك معنى الكلام ، فهنالك عناصر أخرى تتدخل وتجعل المعنى غير واضح وبعيد المنال منها : تركيب الكلام ، وما يحيط به من ظروف وملابسات ، وما بين المتكلم والمتلقي من علاقة ، الغموض ، اختلاف البيئات وغير ذلك .

وعلماء الدالة المحدثون يرون أن صعوبة تحديد المعنى مشكلة أزلية وهي التي كثيرا ما تثير الفتن[١٧] ، لأن الألفاظ قد تؤول من قبل المتلقي إلى معان غير التي أرادها المتكلم . لذا يحدث الخلاف بسبب عدم فهم المعنى . وهذا يلاحظ عندما تصاغ الأنظمة والقرارات بصياغات غير محكمة . تجعل المعنى المراد منها عرضة للاجتهادات والتأويلات فتفسر بتفسيرات متعددة ، لذا كان من الأهمية بمكان أن تكون اللغة محكمة الصياغة واضحة الدلالة لا تتحمل الشك والتأويلات ، ففهم المعنى مرتبط بالاستعمال ومعرفته من قبل المتلقي . فالوظيفة الأساسية للغة ، هو التفاهم بين أفراد المجتمع ، لذا كان لابد من توضيح ما يبدوا غير واضح وإزالة اللبس عما نظن أنه غامض ، حتى لا تؤول النصوص ، وتطمس معالم الدلالة لذلك كانت الحركة العلمية التي قام بها العلماء العرب تمثل أروع جهد بذل في سبيل الحفاظ على سلامة المعنى ووضوحه وتأسيس علم المعنى ، فأفضى ذلك الحديث عن المترادف ، والمشترك اللفظي والمتباين والغريب من الألفاظ الذي لا يتوصل إلى معناه إلا بعد معاناة وإعمال الفكر ، وبينوا المشكل والمتشابه في التراكيب ، والحقيقة والمجاز ، والتوسع في المعنى. فعن المشترك اللفظي والمترادف [١٨] ألفت كتب كثيرة ، وكذلك عن الغريب وكان لعلماء الغريب سواء من اشتغل بغريب القرآن الكريم أو الحديث إسهامات وتصنيفات[١٩] أثرت المكتبة العربية . إن شرحهم وبيانهم لهذه الأمور هي ما يشتغل به علماء الدلالة المحدثون . لقد بين علماء العربية أن صعوبة المعنى تأتي من :

١– غرابة اللفظ : وليس معنى الغرابة أن اللفظ غير مألوف ولا يمثل كونه جزءاً من رصيد اللغة الفعلي ولكن قد يكون اللفظ لا يستعمله ولا يعرفه إلا الخاصة وهذا ما يلاحظ في كثير مما أطلق عليه العلماء " مصطلح الغريب" لتباعد الناس عن استعماله وغيابه عن معرفتهم إذ أنهم قنعوا بمعرفة واستعمال الألفاظ التي يتداولونها في حياتهم اليومية وهجروا جزءاً من اللغة فأضحت غريبة عندهم . فهم يعرفون " الحجر " ولا يعرفون " إلا ثلب أو الكثكث " ويفهمون معنى " القفز " ولا يعلمون " الحجل " وهو أن ترفع رجلاً وتقفز على الأخرى من الفرح[٢٠] فكانت كتب غريب القرآن والحديث وكتب التفاسير رافداً ومعينا في تأسيس وتوضيح المعنى .

٢– أن يكون استعمال اللفظ على سبيل الاستعارة ، فالساق للإنسان والحيوان والشجر والطائر . ولكن استعملت لتدل على الشدة وهول الموقف في قوله تعالى : {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ }[٢١] يقول ابن قتيبة :" وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه شمر عن ساقه فاستــعيرت "الساق " في موضع الشدة "[٢٢] .

والاستعارة أحد أسباب التعدد الدلالي . فقوله عز وجل : {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}[٢٣] فسر بأن امرأة أبي لهب كانت تحمل الحطب وتضعه في طريق الرسول عليه الصلاة والسلام إيــذاءً له وفسره آخرون أنها " كانت تنم وتؤرش بين النـــاس"[٢٤].

٣– أن يكون اللفظ من المقلوب الذي يراد به غير معناه كقولهم للديغ سليم تفاؤلا بسلامته وللفلاة مفازة .

وقد يكون للاستهزاء والسخرية " ومن هذا قول قوم شعيب : { إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [٢٥]. كما تقول للرجل تستجهلـــه : يا عاقل ، وتستخفه : يا حليم[٢٦]ومن هذا قولنا في لغتنا المعاصرة ياذكي لعديم الذكاء ، ويا كريم للبخيل استهزاء وسخرية . وغير ذلك من الاستعمالات التي يراد بها خلاف ما تعنيه . وقد ركز كثير من المحدثين على دراسة التعدد الدلالي الناشئ عن الاستعارة والمجاز لما لهما من أثر في تبديل المعني من دلالة الى دلالة أخرى .

٤– مخالفة ظاهر اللفظ معناه وهو أن تأتي الألفاظ مركبة في جملة ولكن معناها يختلف إذ يراد به شئ آخر مثل قولنا له يد على " أي صنع معروفاً" ، وقلب لي ظهر المجن "أي تبدل وتغير"، لسانه طويل " أي شتام ، وتدخل الكناية في هذا إذ " أنها اللفظ الذي يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه " [٢٧] كقوله صلى الله عليه وسلـــم ((إياكـــم وخضراء الدمن)) محذرا عن المرأة الحسناء في المنبت السوء [٢٨].

٥– احتمال المعنى : وله صور متعددة منها :

أ– أن تكون الأداة التي لها الصدارة في الجملة تحتمل أكثر من معنى مثل قوله تعالى: {

وما أدراك ما هيه }[٢٩] إذ تصلح ما للاستفهام كما تصلح للتعجب[٣٠] وذكر ابن قتيبة أن " هل " تكون للاستفهام [٣١] وتأتي بمعنى " قد" كما في قوله تعالى : { هل أتى على الإنسان حين من الدهر }[٣٢] وكذلك " كيف " تحتمل الاستفهام والتعجب في قولنا كيف تفعل هذا .

ب– عدم إحكام تركيب الجملة إذ أن تركيبها يجعلها تحتمل أكثر من معنى لعدم وجود قرينة تزيل اللبس لهذا اهتم تمام حسان بالقرائن وأكد عليها لأنها تزيل اللبس واحتمالات المعنى وضرب لنا مثلاً لبعض الجمل الملبسة مثل " ذهبت إلى أبناء زيد وعمرو " لا ندري إن كان العطف على الأبناء أو على زيد ، " اشتريت مزرعة لزيد " إن كانت " اللام " بمعنى التعليل فالمزرعة من أجل زيد ، وإن كانت للملكية فإن المزرعة كانت لزيد[٢٤] . واللبس واحتمال المعنى كثيراً ما نصادفه في لغتنا المعاصرة مثل " نجح عشرون طالباً وطالبة " لاندري هل المقصود أن عدد الناجحين هو عشرون ما بين طالب وطالبة أم أن العدد واحد وعشرون " : عشرون طالباً وطالبة واحدة " وكذلك لقيت زيداً راكباً هل الحال للفاعل أم للمفعول إذ أنها تصلح أن تكون للاثنين ومنها قولنا " أكل محمد الطعام الذي أعدته أمه في الحديقة " و " ضربت الولد الذي قابلته في المدرسة " فيحتمل أن يكون الطعام أعد في الحديقة وقد يفهم أن الأكل حصل في الحديقة ، أما الجملة الثانية فيحتمل أن يكون الضرب للولد الذي تمت مقابلته في المدرسة ، وقد يكون الضرب حصل في المدرسة .

أنواع الدلالة :

الدلالة الصوتية : يتحدث العلماء عن الدلالة الصوتية وأثرها في وضوح المعنى، لأن نطق الأصوات نطقاً صحيحاً يساعد على معرفة المعنى ، بينما عدم وضوح النطق يؤدي إلى الأبهام في تحديد المعنى ، فالخلط بين الأصوات يفضي إلى الخلط في المعنى، فهناك من لا يفرق بين القاف والغين والزاي والذال فتصبح "قوي" " غوي " و " يتزكى " " يتذكى " وغير ذلك من الأمور الصوتية .

كما أن لإيحاء الأصوات أثراً في تعميق المعنى في النفس وتصويره . وقد أشار الخليل بن أحمد مبكراً بأن العرب قالوا : صر الجندب صريرا وصرصر الأخطب صرصرة فكأنهم توهموا في صوت الجنـــدب مداً ، وتوهموا في صوت الأخطب

ترجيعاً[٣٤]. وقال عندما ذكر الصلصلة والزلزلة " يتوهمون في حسن الحركة ما يتوهمون في جرس الصوت " [٣٥] .

وقد قاد هذا إلى فكرة الارتباط بين المعنى وما يتألف منه اللفظ من أصوات وهي فكرة لا

تخلو من صحة وصدق . وقد انشغل بعض اللغويين بإيحاءات الأصوات ودلالاتها . فالأصمعي في كتاب " الاشتقاق " وابن دريد في "الاشتقاق" حاولا تفسير الأسماء والقبائل على ضوء إيجاد علاقة صوتية بين " الاسم والمسمى". فمهلهل مأخوذ من " الهلهلة " سخف الثوب ورقته " وقحافة " من القحف أخذك كل ما بقى في الصحفة "[٣٦]. ويقول ابن دريـــد وإنما سمي قصياً لأنه قصا عن قومه [٣٧] . ويروي أن أبا عمرو سأل أعرابياً عن الخيل لماذا سميت بذلك فقال : من الخيلاء لأن في مشيتها تيهاً وعجباً . وتوسع ابن جني في بيان إيحاء الأصوات للمعنى فعقد في أكثر من باب الصلة بين الأصوات ومعانيها ، فذكر أن الخضم لأكل الرطب من الأشياء أما القضم فلليابس[٣٨] . والنضح لسيلان الماء بضعف والنضخ لتدفق الماء بقوة وشدة .

ونشر أحمد الأخضر غزال بحثاً بعنوان : " فلسفة الحركات في اللغة العربية " حاول فيه أن يثبت بأن هناك مناسبة بين اللفظ ومعناه أتت عن طريق اختيار الأصوات يقول: " وإذا اشتد خروج الأصوات الثقيلة فذلك لسبب و وإذا خف فذلك لسبب أيضاً أراده العقل ليعبر عن الشدة مع الأصوات الشديدة وعلى الليونة مع الأصوات اللينة " ومثل بـــ" هف وقض " فقال سحاب هف رقيق لا ماء فيه وقض الحائط أي هدمه ، ويقول أيضا " ولكل لطيف وأنيق وجميل وحلو ومطرب ومفرح ومسعد أصوات لطيفة لينة موسيقية ولكل خشن وثقيل وخبيث وبشع ومحزن .. أصوات تناسب تلك الصفات بمعاني أصواتها "[٣٩] .

الدلالة الصرفية :

لبنية الكلمة أهمية في تحديد معناها فعن طريق البنية وصيغها المختلفة تبرز المعاني وتحدد " فأخذ " لها معنى دلالي يختلف عن " أتخذ " وقد تنبه اللغويون العرب لهذا فقرروا أن هناك دلالة معنوية يكتسبها اللفظ تبعاً للصيغة التي يكون عليها ، فالمعنى الذي نستوحيه من " كسَّر " يختلف عن "كسر " فالتضعيف اكسب الأولى زيادة معنوية إذ أننا بالغنا في التكسير بينما المعنى في الثانية لا يتجاوز الكسر أيا كان . وفي ذلك يقول ابن جني " ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل فقالوا : كسَّر وقطَّع وغلَّق وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة على المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل[٤٠] ويجدر أن نذكر هنا أن لصيغ المبالغة وأوزانها دلالات معينة " فصبور " تدل على معنى أكثر من صابر، وكذلك فعَّال في قوله تعالى : {فعال لما يريد }[٤١] تدل على أنه قادر وعظمته عز وجل لا تحد وكذلك في قوله تعالى: {أخذناه أخذ عزيز مقتدر }[٤٢] أبلغ من قادر لذا ذكر الصرفيون أهمية الزيادة في البنية ووضحوا معانيها فقولنا " أعطى لها دلالة تختلف عن استعطى " بمعنى طلب العطية وقد قال ابن

جني موضحا لما للصيغة والبنية من أهمية في بيان المعنى " وبعد فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به(٤٣) وذكر أن المعنى يقوى لقوة اللفظ وهو بهذا يعني أن لبناء الكلمة وصياغتها أثراً واضحاً في دلالة المعنى يقول : " إن معنى خَشُنَ دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرار العين وزيادة الواو وكذلك قولهم أعشب المكان فإذا أرادوا كثرة العشب قالوا : اعشوشب، ومن ذلك أيضاً قولهم : رجل جميل ، ووضيء ، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا : وُضَّاء وجُمَّال ، فزادا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه (٤٤) .

وبهذا يتضح أن للصيغة دلالة معنوية لم يغفل علماء العربية عن بيانها لما لها من أثر كبير في إثراء اللغة ورفدها بدلالات معبرة .

تطور الدلالة :

يتحدث العلماء عن تطور الدلالة وتغير معاني الألفاظ ويرون أن معاني الألفاظ أكثر أجزاء اللغة عرضة للتبدل ومنذ بداية علم اللسانيات أبان دي سوسير ذلك بقوله : " كل جزء من أجزاء اللغة عرضة للتطور هذا التغيير يحدث بنسب مختلفة ولا يشعر به" (٤٥) . وجاء العلماء من بعده فوضحوا أسباب التطور والتغير ومظاهره معتمدين على تتبع اللغة عبر تاريخها. واللغة العربية ليست بدعا من بين اللغات فكثير من دلالات ألفاظها أصابه التطور وتوسع في معانيها ليعبر عن معان جديدة لم يألفها العرب من قبل. وإذا تتبعنا تاريخ اللغة العربية نجد أن كثيرا من ألفاظها تطور من المحسوسات إلى معان مجردة فكلمة " برهان " مأخوذة من بره الرجل ثاب جسمه من بعد علة (٤٦) ثم أصبحت تدل على الحجة لما فيها من بيان ونصوع وقد عبر ابن فارس عن أسباب التطور الذي لحق العربية في لفتة تدل على ريادة و سبق يقول : " كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم فلما جاء الله جل وثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفى الآخر الأول " (٤٧) فمن أهم أسباب تطور الدلالة كما تظهر عند ابن فارس :

١- الحاجة : التي تدعو المجتمع اللغوي إلى التصرف في اللغة ونقل ألفاظها إلى معان لم تكن معروفة وهذا ما أشار إليه في نصه السابق فالفسق لا يعرفه العرب إلا في مظهره المادي وهو خروج الرطبة من قشرها ولكن نقلت في الإسلام إلى معنى الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه (٤٨) وكذلك لفظ الزكاة والكفر والصوم.

٢- انتقال المجتمع من حياة إلى حياه أخرى من دواعي تبدل معاني الألفاظ والاستغناء

عن بعضها ويتضح هذا عندما جاء الإسلام ونقل العرب من حياة اللهو والخمر والميسر فأبطلت ألفاظ واستغنى عنها لأنها لم تعد من مقومات المجتمع فزالت ألفاظ الميسر وبعض العادات في البيع والشراء كالأتاوة والخراج " والمكس " دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق(٤٩) .

فالتطور الاجتماعي والثقافي الذي يعد أحد أسباب تغير المعنى تعرض له علماء العربية فذكروا أن هنالك كلمات أحدثها الإسلام لم تكن معروفة مثل " الجاهلية " اسم حدث للزمن الذي كان قبل البعثة ، والمنافق للذي يبطن خلاف ما يظهر (٥٠) إذ كان هنالك قوم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر وغير ذلك من الألفاظ عبرت عن حياه المجتمع الجديد .

٣- إساءة الفهم : الانحراف واستعمال اللفظ في غير ما وُضِعَ له أحد الأسباب التي تؤدي إلى نقل الألفاظ من معناها إلى معنى آخر . فقد يحدث أن يسمع شخص لفظا ولكن يسيء فهمه أو تكون دلالته غير واضحة فيستخدمه في معنى مغاير لا يمت إلى معناه الأصلي وقد عد ابن خلدون الانحراف اللغوي واستعمال اللفظ في غير ما وضعته العرب له أحد الأسباب التي جعلت الخليل بن أحمد يصنف(٥١) كتاب العين . وقد أبان ابن قتيبة في باب ما يضعه الناس في غير موضعه كيف أن " الحشمة " يضعها الناس موضع الاستحياء وهي تعني الغضب " والقافلة " يذهب الناس إلى أنها الرفقة في السفر(٥٢) . وقد أرجع إبراهيم أنيس تعدد معاني بعض الألفاظ العربية إلى استعمال اللفظ في غير ما وضع له " ثم قد لا تتاح لهذا السامع فرص أخرى لتصحيح خطئه ويبقى اللفظ في ذهـــنه مرتبطاً بتلك الدلالة الجديدة "(٥٣) إلى جانب بقاء الدلالة الأصلية .

مظاهر تطور الدلالة :

اللغة وسيلة اجتماعية تستخدم لإيصال الأفكار وتبليغ ما يريد أن يدلي به المتحدث من معاني . لذا كانت موضع اهتمام اللغويين وغيرهم . وقد تستعمل الألفاظ في معانيها التي وضعت لها، وأحيانا ينحرف بها إلى معان جديدة لأن الحياة متجددة لا تتوقف والألفاظ محدودة فكان لابد أن تنقل معاني الألفاظ لتعبر عن هذا الجديد . وقد مرت ألفاظ اللغة العربية عبر تاريخها الطويل بحيوات مختلفة، وأحداث وظواهر اكتسبت فيها دلالات ، عبرت عن المفاهيم الحضارية والثقافية بأدق التفاصيل ، وأحلى الأساليب ، كما نبذت وطرحت بعض الألفاظ والتعابير التي لم تعد تحمد في الاستعمال . وقد عبر ابن فارس ذلك بقوله " أبطلت أمور و نقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع بزيادة زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت " (٥٤) .

فألفاظ اللغة تتغير مدلولاتها وتنقل معانيها إلى معان جديدة عن طريق :

١– تغير الدلالة بالاتساع وهو أن يكون معنى اللفظ محصوراً في معنى محدد ولكن نتيجة للتطور والرقي الذي يتعرض له المجتمع تفرض الحاجة إلى التوسع في معناه وإعطائـــه دلالة جديدة أملتها الظروف المتغــيرة فكلمة "سيارة تعني القــافلة " (٥٥) ولكن توسع في معــناها وأصــبحت الآن تدل على وسيلة النقل المعروفة . وكذلك كلمة " قطــار " تدل على قطار الإبل تشــد على نسق واحد خلف واحد (٥٦) وتوسع في معنــاها لتدل على قطار السكة الحديد وغير ذلك كثير .

٢– تغير المعنى بالتضييق : وهو أن يحصر المعنى الدلالي للكلمة في دائرة معينة بحيث لا يتعداها فبعد أن يكون مدلوله عاما شاملا يضيق المعنى ويخصص لشيء معين مثل " صَوَّتَ " تعني النداء بصوت مرتفع (٥٧) ولكن الآن تدل على المفهوم الانتخابي ، وفي المحافل الدولية بمعنى أيده ووافقه على القرار أو المشروع أو صوت ضده إذا رفض ولم يوافق . ولفظ " السفير تعني الرسول والمصلح بين القوم " (٥٨) وأصبحت الآن تدل على " مبعوث الدولة لدى رئيس الدولة المبعوث إليها " .

٣– انحطاط الدلالة : يحدث أحياناً أن يكون للفظ معنى راقٍ إلا أنه بمرور الزمن ولظروف اجتماعية تنحط دلالته وتصبح مبتذلة فكلمة " الحاجب " كانت تدل في دولة الأندلس بمعنى رئيس الوزراء ولكن ابتذلت دلالتها وتستعمل الآن في معنى الخادم، وكذلك الحال في كلمة عِلْق " الشيء النفيس " تستخدم في عامية الحجاز بمعنى الإنسان التافه ، ومثلها كلمة بهلول " السيد" ابتذل معناها لتدل على من يقوم بأعمال مضحكة .

٤– رقي الدلالة: بعض الدلالات قد يتغير معناها إلى معنى راقٍ وقد ذكر إبراهيم أنيس أن " مارشال " كانت أول أمرها تدل على خادم الإسطبل(٥٩) ثم رقت دلالتها وأصبحت تدل على رتبة ولقب عسكري ، وإذا أمعنا النظر في لفظ رسول فإنها تدل على من يرسل في أي أمر كان عظم أو تفه ولكن عندما جاء الإسلام أخذت مفهوماً سامياً حيث تدل على الشخص الذي أوحي إليه برسالة وأمر بتبليغها . أما لفظ الشجاع كما توضحها المعاجم فإنها تعني الثعبان ولكن ارتقت دلالته فيما بعد ليدل على الشخص البطل المحارب أو يستخدم صفة لإنسان يتمتع بالجرءة وقول الحق .

وخلاصة الأمر أن ألفاظ اللغة تتغير معانيها تبعاً للأزمان والمراحل التي تمر بها اللغة ووفقا لحاجة الناس إلى معان جديدة ، فكثير من ألفاظ اللغة تطورت إلى معان لم تكن معروفة من قبل فالأجير كانت تدل على العامل المستخدم أصبحت الآن في عرف السياسيين من يخون وطنه ويعمل لغير صالحه ، كذلك لفظ الشيخ " للرجل المسن " استخدمت في فترة من الزمن كلقب

اجتماعي للشخص الذي يتمتع بوجاهة ثم تحددت الآن للعالم المتفقه في الشريعة .

وقد أبان الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه التطور اللغوي آثار الاستعمال اللغوي الجديد على معاني الألفاظ في مفهومها السابق فذكر أن " شجب كانت تستعمل بمعنى حزن ولكن معناها المعاصر "استنكر " وكلمة "احتج " معناها " في كتابات المتقدمين ، وعندهم احتج بالشيء أتخذه حجة ليس غير " ولكن المراد منها في لغة السياسة استنكرت الصنيع " .

الخاتمة:

وبعد فلعلنا لا نتجاوز الحقيقة حين نؤكد أن لعلماء العربية إسهامات واضحة في علم المعنى فقد وضعوا أصولاً وأرسوا مفاهيم انبثقت من تصورهم للغة هذه الأصول والمفاهيم تشبه إلى حد كبير المفاهيم والتصورات لعلم الدلالة المعاصر فقد أبانوا :

١- أن الكلمة هي أساس الوحدة الدلالية ومنها تنشأ الوحدات الدلالية الأخرى فمنها تبنى العبارة وعنها تتركب الجملة لذا كانت موضع اهتمام العلماء بمختلف اتجاهاتهم .

٢- أن المعنى لا تتوقف معرفته فقط على اللفظ مفرداً أو مركباً في جملة ولكن للأصوات إيحاءات دلالية تزيد في المعنى . كما أن لبنية الكلمة أثرها في إيضاح المعنى إذ يقوى بقوتها ويزداد بزيادتها فزل لها معنى غير زلزل لأن الثانية تدل على تحرك واضطراب وأن الحدث فيها تكرر

٣- احتمالات المعنى تنشأ من أمور كثيرة منها الغموض ، ويأتي في مقدمتها عدم إحكام بناء الجملة ، واستعمال الألفاظ والأدوات التي لها أكثر من معنى ، كما أن للمشترك اللفظي دوره في احتمال المعنى .

٤- دلالات الألفاظ عرضة للتطور والتغير فمن أسباب تغير الدلالة الحاجة التي تؤدي إلى التوسع في معانيها ونقلها إلى معان جديدة تمليها ظروف تغير المجتمع وتطوره .

الهوامش والتعليقات

(١) نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، نهاد الموسى .

(٢) التفكير اللساني في الحضارة العربية ، د. عبد السلام المسدي ص٢٦.

(٣) أنظر على سبيل المثال **Arabic Lexicog raphy John Haywood** .

(٤) المقتضب للمبرد ، جــ٤ ص ٣١١ .

(٥) التصور اللغوي عند الأصوليين .

(٦) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، محمود السعران ص ٢٦١ وانظر دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

(٧) الكتاب ، سيبويه جــ١ ص

(٨) علم الدلالة ، أحمد مختار عمر ، ص ١٥-٢٠ .

(٩) التفكير اللساني في الحضارة العربية ص ٢٤ .

(١٠) المصدر نفسه ص ٢٤ .

(١١) علم الدلالة ص ٢١-٢٥ .

(١٢) الكتاب جــ ١ ص ٢ .

(١٣) أمثال العرب للمفضل الضبي ص ٥١ .

(١٤) كتاب دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ص ٤ .

(١٥) المصدر نفسه ص ٧ .

(١٦) سورة الكهف ، آية ٤٢ .

(١٧) دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(١٨) ما أتفق لفظه واختلف معناه لأبي محمد يحيى اليزيدي ، تحقيق د.عبد الرحمن بن سليمان العثيمين .

(١٩) الألفاظ المترادفة لأبي الحسن الرماني ، شرح وتصحيح محمد محمود الرافعي .

(٢٠) غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي .

(٢١) سورة القلم ، آية ٤٢ .

(٢٢) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٣٧ .

(٢٣) سورة المسد ، آية ٤ .

(٢٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٥٩ .

(٢٥) سورة هود ، آية ٨٧ .

(٢٦) تأويل مشكل القرآن ، ص١٨٥ .

(٢٧) المثل السائر ، ابن الأثير ، جــ٢ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢٨) كتاب الطراز للسيد يحيى بن حمزة العلوي ، الجزء الأول ص ٤١٠ .
(٢٩) القارعة ، آية ١٠ .
(٣٠) البيان في روائع القرآن ، تمام حسان ص ٢٢١ .
(٣١) تأويل مشكل القرآن ، ص٥٢٨ .
(٣٢) الإنسان ، آية ١ .
(٣٣) البيان في روائع القرآن ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
(٣٤) كتاب العين جـ١ص٥٦ .
(٣٥) المصدر نفسه ص ٥٥ .
(٣٦) كتاب الاشتقاق تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ص ٢٩،٣٦
(٣٧) الاشتقاق تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، ص ١٩ .
(٣٨) الخصائص ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣٩) مجلة اللسان العربي ، الجزء الأول ١٩٧٣ ص ٦٧ .
(٤٠) الخصائص ، جـ٢ آية ١٦ .
(٤١) البروج ، آية ١٦ .
(٤٢) القمر آية : ٤٢
(٤٣) الخصائص ، جـ٣ ص ٢٦٨ .
(٤٤) الخصائص ، جـ ٣ ، ص٢٦٤ ، ٢٦٦ .
(٤٥) Course in General Linguistics , p140
(٤٦) اللسان ، مادة بره .
(٤٧) الصاحبي تحقيق السيد أحمد صقر ، ص٧٨ .
(٤٨) الصاحبي ، ص٨٤ .
(٤٩) اللسان ، مادة أتى .
(٥٠) المزهر للسيوطي ، جـ١ ص ٣٠١ .
(٥١) مقدمة العلامة ابن خلدون ، ص٥٤٨ .
(٥٢) أدب الكاتب ، ص ١٩ ، ٢٠ .
(٥٣) دلالة الألفاظ ، ص ١٣٥ .
(٥٤) الصاحبي ، ص ٧٨ .
(٥٥) لسان العرب ، " سير " .
(٥٦) لسان العرب ، " قطر " .
(٥٧) لسان العرب ، " صوت " .
(٥٨) لسان العرب ، " سفر " ، وانظر المعجم الوسيط ، جـ١ ص ٤٣٥ .
(٥٩) دلالة الألفاظ ، ص ١٥٨ .

المصادروالمراجع

أولاً : العربية : -

- أدب الكاتب ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .
- الاشتقاق ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م
- الألفاظ المترادفة ، أبو الحسن الرماني ، شرح وتصحيح محمد محمود الرافعي .
- البيان في روائع القرآن ، تمام حسان ، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٣م - تأويل مشكل القرآن ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه ، شرحه ونشره السيد أحمد صقر ، دار التراث الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .
- التصور اللغوي عند الأصوليين ، السيد أحمد عبد الغفار ، عكاظ للنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- التطور اللغوي التاريخي ، إبراهيم السامرائي، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦م . - الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، حققه محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية " ١٩٧١هـ / ١٩٥٢م .
- التفكير اللساني في الحضارة العربية ، عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الأولى ١٩٨١م .
- الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني ، حققه محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .
- الصاحبي ، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق السيد أحمد صقر .
- دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م .
- أمثال العرب ، المفضل الضبي ، قدم له وعلق عليه إحسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، أبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ١٣٥٩ هـ/ ١٩٣٩م .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، المكتبة العالمية ، طهران .
- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، تحقيق محمد بعد الخالق عضيمة ، عالم الكتب بيروت.
- الكتاب ، أبو بشر عمروا بن عثمان بن قنبر ، الطبعة الأولى ، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق ١٣١٦هـ .
- علم الدلالة ، أحمد مختار عمر ، مكتبة دار العروبة ، الطبعة الأولى ، الكويت ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٢٨م .
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، محمود السعران ، دار النهضة العربية ، بيروت .
- غريب الحديث ، أبو عبيد القاسم بن سلام الهراوي ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤م .
- كتاب الاشتقاق ، عبد الملك بن قريب الأحمص ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين بغداد ١٣٨٥هـ / ١٩٦٨م .
- كتاب دلائل الإعجاز ، عبد القاهر ا لجرجاني ، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني .
- كتاب الطراز ، يحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٠هـ .
- كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨١م .
- لسان العرب ، ابن منظور الأفريقي .

- ما أتفق لفظه واختلف معناه ، أبو محمد يحيى اليزيدي ، تحقيق عبد الرحمن العثيمين ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .
- مقدمة العلامة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، المكتبة التجارية، القاهرة .
- نظرية النحو في ضوء مناهج التطور اللغوي الحديث ، نهاد الموسى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ .

ثانياً : الدوريات العلمية :

- مجلة اللسان العربي ، الجزء الأول ، الرباط .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

L. Bloomfield Language. London 1967

F. Desaussure Course in General Linguistics. New York.

J. Haywood Arabic Lexicography. Leiden. E. J. Brill. 1965

F . R. Palmer. Semantics. Cambridge University Press, 1981.